على الفلاحين اقترفت خطأ فادحا. فلم يكن كل ملاك الأراضى لصوصا أو ظلمة. بل منهم من جمع الأرض سهما وقيراطا بالجهد والتعب وعرفوا كيف يعاملون الفلاحين بالعدل والحق. وهؤلاء كانوا يستخرجون من قرى مصر أغلى محاصيل الدنيا. وإذا لجاءوا إلى الشدة فقد كانت شدة محسوبة لأن الفلاح بطبعه كسول فى العمل فى أرض غيره ولابد من موالاة الضغط عليه باستمرار. أما حكاية مالك الأرض الذى كان يبيع بصورة دائمة جاموسة الفلاح المتأخر عن سداد الديون فأسطورة ونادرا ما كان صاحب الأرض يلجأ إليها وإنما استعملها نظار الزراعة والخولية والعمد ومشايخ الخفر وكلهم فلاحون. والحقيقة أنه ليس هناك أعز ولا أحب إلى صاحب الأرض من فلاح أو خولى أو ناظر زراعة شغال مجتهد مقبل على العمل، وتستطيع أن تسأل نفسك لنفترض أن فى بيتك خادما أو شغالاً مخلصًا صادقًا مقبلا على العمل وأمينًا فهل يكون هناك أعز عليك منه؟ وإذا حرص هذا الشغال أو احتاج إلى عون مالى فهل تبخل عليه؟ ألا يكون هذا الإنسان رجلا كان أو امرأة عزيزا على نفسك كأنه أحد أفراد أسرتك؟ فهذا هو حال صاحب الأرض مع فلاحيه الطيبين: إنه يضربهم بنفسه. ولقد عملت سكرتيرا لأحد كبار ملاك الأراضى، وكان يستدعينى إلى القرية أحيانا ليملى علىّ ما يريد كتابته بعد الظهر، وكان له فى العزبة ناظر زراعة يساوى وزنه ذهبا يسمى شجر أفندى، وفى ذات مرة وصل الباشا إلى العزبة فقيل له إن شجر أفندى مريض راقد فى فراشه، فاتجه إلى داره راكبًا حمارًا ودخل وبعث يستدعى الطبيب، ونقل الرجل إلى المستشفى على حسابه ثم نادى العمدة ولعن أبا خاشه لأنه أهمل فى شأن هذا الرجل الذى يساوى ظفره رقابكم جميعا.

وكان أمثال هذا الباشا كثيرين فظلمهم ما يسمى بالإصلاح الزراعى ووضعهم مع الباقى فى زكيبة واحدة ألقى بها على التل ووزع الأرض